القديس يوحنا الكوخي

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني

الى القارئ اللبيب الحبيب ترجمةٌ تستلفت الانظار وتسترعي الأسماع وتخلب الألباب . قصّة يوحنا صاحب الانجيل المذهّب او القديس يوحنا الكوخي !

كان هذا القديس من مدينة رومة ابن ابوين تقيّين صالحين نازلين في سرابيون وتاودورة وكان ابوه وزير ملك رومة . وهبهما الله ولدين فقط فحزنا لذلك الحزن الشديد . فضاعفا صلواتهما وأغزرا الصدقات على الفقراء والايتام والارامل بغية ان يتحنّن الله عليهما ولو بولد آخر . فرزقهما هذا الولد ففرحا به الفرح العظيم وأحياه يوم عماده يوحنا اي « الرب تحنّن » . ..

فنشأ يوحنا على تربية صالحة تحت ظلّ والديه الصالحين وأدخلاه مدرسة مسيحية وهو ابن عشر سنين فنبغ بالعلم والادب وخوف الله واحبّ الصلاة والصوم وواظب على قراءة الكتب المقدسة ايامه ومعظم لياليه حتى صار ابن ثمان عشرة سنة . واذا براهب من دير « المستقيم »[1] وفد الى الحي القائمة اسرة يوحنا فيه يعظ الناس ويرشدهم الى سبل الخلاص فرجاه ابواه ان يكون نزيلهم في اثناء رياضاته . وطبعاً كان لمجيء ذلك الراهب تدبيرٌ الهيّ . فاستقبلوه بملء الفرح وأنزلوه في جانح من قصرهم الى نهاية عمله الروحي .

ومن جملة مقاصد ذلك الراهب زيارة قبر المخلّص في القدس : فلازمه يوحنا طوال مدة اقامته عندهم . فأرشده الراهب الى الزيادة من الصوم والصلاة ومكّنه في سبيل الحق وشرح له الانجيل المقدس .

فلما قرأ كلام المخلص القائل : « مَن لا يترك اباه وأمّه ويحمل صليبه ويتبعني فلا يستحقني » التهب قلبه بنار حب اللحاق بالمسيح وأحبّ ان يصير راهباً . وبينما كان ليلةً ما متوجهاً الى غرفة الراهب الكاهن اذا به يراه راكعاً مصلوب اليدين وعيناه الى السماء ودموعه منهلّةٌ على خديه مصلّياً طوال ليله قارعاً صدره ملتمساً للناس الرحمة من الرب والغفران للخطأة . فبكى يوحنا امام هذا المشهد ونوى ان يتبع الراهب الى حيث يذهب وناداه : يا ابت ارجوك ان تأخذني

(١) وهو دير الآبا باخوميوس الزاخر برهبانه .

معك حيثما تمضي ! فالتفت الراهب اليه اندهاش ! وحدق قليلاً مصرًا اليه وهو يمسح يديه وقال له : لا . لا يكونن هذا ! وما رأي امك ؟

فقال يوحنا : مالك واهلي ! فانت والمسيح الذي نخاطبه : انتما اهلي !

قال الراهب . نعم ما قلت ! فانا ذاهب الى بيت القدس لزيارة خاصة. وعند عودتي آخذك معي. وخرج الراهب قاصدًا القدس وخرج يوحنا وراءه يبكي ! فاقسم له الراهب باسم المسيح انه وهو عائد من القدس ينزل عندهم ويأخذه معه .

ومضى الراهب في سبيله وعاد يوحنا الى البيت وطلب من أبيه انجيلاً ذا جلد من ذهب ابريز فأجاب ابوه طلبه . وأخذ يوحنا الانجيل وبدأ يقرأه ليل نهار. ويوزع صدقات على الفقراء والمساكين ودور حزين القلب على فراق الراهب مشغول الفكر به منتظرًا عودته بذرع الصبر ! محدثًا نفسه : أتراه لي كلمة توصية ؟ وذهب ذهاب غراب نوح؟ واذا لم يعد فما يكون من امري؟ واذا عاد فما يكون من امر اهلي : ابي ! والدتي ! اخواني ! يقظ ويقظ كنائم! لا يأكل ولا يشرب ! ! ! وفيما هو كذلك اذا بعينيه تقفان على الراهب في الافق البعيد ! ! ! والراهب ودّع يوحنا وترك قلبه عنده مردّدًا قول الشاعر :

ودّعته وبودّي لو يودّعني طيبُ الحياة واني لا أودّعهُ

وزار الاماكن المقدسة وافكاره بيوحنا : هل ينجح بمحبته هذه ؟ وماذا يكون موقف والديه ؟ وهلاّ يرجع هو عن اللحاق به ؟ يا ليتني استأذنت له والديه وجئت به معي ! ومع ذلك فالماضي مضى . فلعلّ الله يثبّت دعوته منه فيكون صيدي اليوم ! ويكون في مستقبل الايام صيّادًا ماهرًا يصطاد النفوس لله .

....

وصل الراهب الى رومة : الى بيت سرابيون الوزير . ففرح البيت كله به وسكر يوحنا من فرحه برجوعه وتباركوا جميعاً منه . وقضى عندهم اياماً لازمه يوحنا فيها ليلاً نهارًا ثم ودع الجميع ومشى في طريقه الى ديره . فتصدّى له يوحنا على حدة وقال له : لقد وعدتني وحلفت لي انك تأخذني معك . فتمم بوعدك وبرّ بقسمك !

فاجابه الراهب : ليس باستطاعتي يا ولدي ان آخذك معي فالدير بعيد، والطريق وعرة وانت مربى دلال وابن وزير خطير. وانت صغير. فاخاف ان يعرف بي ابوك فيرسل من يقتلني ويرجعك .

فقال له يوحنا وهو يبكي : ان لم تأخذني معك . فكل خطيئة فعلتها في حياتي تكون في عنقك .

فقال له الراهب : لا تحرقني بخطيئتك . فاني خائف من والديك !

فقال يوحنا استأجر مركباً وانا ادفع نفقات السفر فسعى ولا يدري بنا احد ! فتوجه الراهب الى شاطئ البحر فوجد مركباً واقفاً . فسأل صاحبه : كم اجرة مركبك الى الميناء كذا ؟ فقال الربّان : مئة دينار .

فمضى يوحنا الى أمّه وقال لها : يا والدتي ان لي رفاقاً في الكتّاب (المدرسة) اكرموني جداً وغمروني بضيافتهم فاريد اكرامهم فأرجوك مئة دينار لاقدم لهم شيئاً من ضيافتهم !

ففرحت أمه اذ سمعت مقاله هذا فنقلته الى والده فسرّ به والده ايضاً واعطاه ما طلب وزاده . وارسل صحبته احد عبيده لخدمته . فأخذ يوحنا العطية والانجيل المذهّب ومضى وهو يفكّر كيف يصرف الخادم . والتفت اليه وقال : امض يا فتى الى الكتّاب وانظر اذا كان رفاقي هناك وعد اليّ . فلبّى الغلام امر سيده . وتوجه يوحنا الى الشاطئ حيث كان الراهب بانتظاره فسلّمه المال وصعدا معاً الى السفينة وسافرا . وكان يُقتضى لهما مدة شهر ليصلا حيث يقصدان . فوصلا في يوم واحد وكان ملاك الرب مرشدهم .

ومضت على ذلك ايام ثلاثة . فطلب الوالد ولده يوحنا في الكتّاب فلم يجده ففكّر في نفسه : ان الراهب استصحبه معه . فأرسل غلماناً يطلبه فرساناً في البحر فخيّب الرب ارادة ابيه بأن عصفت زوبعة فهاج البحر وماج فلم تسر المراكب . فتنادوا وصبروا اياماً ثم عادوا وركبوا السفن فلم يستطيعوا السفر في البحر ولا في البرّ . فعادوا واخبروا والد يوحنا بما كان فتعجب ! ثم فكّر ملياً وقال : إنه لتدبير من الله !وعاد يبكي ويقرع صدره قائلاً : ويل لي من بعدك يا ولدي يوحنا ! ان حزني عليك سيرافقني الى القبر ! أما أمه فبكت وناحت ونثرت شعرها ولبست مسح شعر ولطمت وجهها وهي تقول : ويلي من بعدك يا ولدي يوحنا ! يا حبيب قلبي ! ويا قرّة عيني ! من خطفك من بين يديّ ! يا يوحنا ! كيف سمح لك قلبك ان تبتعد عني وتحرمني منظرك الحلو البهج . ومن يعزّيني يا ولدي ويسلّيني طوال عمري على فراقك ! ومن يعطيني جناحين كالحمامة فأطير الى حيث انت وانظر وجهك البهي واكتفي من الحياة ! وعلى مثال الوالدين بكاه اخواه طويلاً طويلاً أياماً وليالي !

....

وصل الراهب الى الدير ويوحنا معه . فسأله الرئيس : من هذا الشاب فانه لأشبه باولاد الملوك ؟ فقصّ الراهب عليه قصته بحذافيرها . ثم تقدم يوحنا من الرئيس والتمس منه ان يقبله ويجعله احد رهبانه موشّحاً اياه بالاسكيم الرهباني المقدس

فقال له : يا ابني . انت ابن ملوك وقد تربيتَ بالنعمة والدلال . وهل لك طاقة على الصوم والسهر والجوع والعطش وتعب الرهبان وتقشفهم ؟ فينبغي ان تقضي مدة في الدير على ما انت عليه وتدرس حالتك حتى اذا رأيت ان لا قدرة لك على السير مثلهم رجعت الى والديك . فبكى يوحنا لدى سماعه كلام الرئيس وقال له : « اني لراجٍ ربي الذي قادني الى ديركم ان يسهّل امور تصلواتكم وطلب ملك راجياً ان تلبسني اسكيم الرهبان ! »

ولما سمع الرئيس كلامه هذا قال في نفسه : لا شك انها لدعوة الهية فأمر بقرع الناقوس . فاجتمع الرهبان وكانوا سبعمئة راهب لم يستحقهم العالم . وصلّوا الصلاة المفروضة . وبحضورهم ألبسه الرئيس الاسكيم الملائكي . وبدأ يوحنا ممارسة الاعمال الصالحة والقيام بخدمة الاخوة . فينقل الحطب ويجلب الماء ويطبخ ويكنس القلالي والدير ويتمّم كل ما يؤمر به والانجيل بين يديه . ويصوم ويصلّي ليلاً نهاراً وهو على حذر تام خشية ان يسترقه ابليس بما عليه يلام .

وبعد ان قام بكل ما عُهد به اليه خيرَ قيام سنين عديدة طلب من الرئيس قلّيةً ينفرد فيها وحده مثابراً على الصوم اسبوعاً واسبوعين احياناً باكياً متضرعاً طالباً من الله ارتفاع شأن كنيسته ورجوع الخطأة الى التوبة والغير المؤمنين الى الايمان ناعماً باحتمال الجوع والعطش والحرّ والقرّ يمارس كل هذه الامور التقوية خفيةً بحيث لا يدري بها احد من اخوته الرهبان . ومكث على هذه الحال ثلاث سنين . فهزل جسمه وتغيّر لونه وامسى وجهه بلون الرماد وزال ما كان عليه من مسحة جمال واستحال الى لون حبشيّ اسود والصق جلده بعظمه من اغراقه في التقشف والعبادة .

وكان الرئيس يزوره مرة بعد مرة حاملاً اليه بعض المآكل . ولما رآه على ما وصفنا قال له : يا ابني اشفق على نفسك ولا تحملها فوق طاقتك . فاني اراك ضعيفاً جداً . فهل تريد ان ازيدك من الطعام لتقوى على مواصلة العبادة والتقوى ؟

فبكى يوحنا لدى سماعه كلام الرئيس وقال : ليس يا ابي ما طرأ على

حسدي من كثرة عبادتي وما اتيها . بل هو من كثرة ذنوبي وخطاياي . ولم يكن للرئيس علم بان يوحنا يوزّع ما يؤتى به اليه من الخبز والطعام على الفقراء والمساكين ولا يأكل هو سوى البقول وحدها.

....

وفيما كان يوحنا ليلة ما بصلاة نصف الليل سمع صوتاً يقول له : « يا يوحنا قم وامض الى والديك لينظراك قبل موتهما ! » ولما انتهى من صلاته بدأ يفكر : أيكون ذلك الصوت صوت ملاك ام صوت شيطان ؟ رباه اطرد عني العدو فلا يطغيني ويبعدني عنك كما طغى آدم وأخرجه من الفردوس !

وفي الليلة الثانية وهو في صلاته كالعادة سمع نفس الصوت يقول له . « يا يوحنا قم وامض الى والديك لتأخذ بركتهما قبل الموت ! » فحزن يوحنا الحزن الشديد وقضى ليله ونهاره باكياً قائلاً في نفسه : ما لي ولوالديّ ! أما اخترت السكن مع الله وتركت والديّ مسلّماً اياهما الى الله ؟

وفي الليلة الثالثة ويوحنا يصلّي أشرق في قلّيته نور عظيم أضوأ من نور الشمس في رائعة النهار واذا بصوت يقول : « يا يوحنا لقد قلت لك مرتين وهذه مرة ثالثة اكرر عليك القول فيها قم وانطلق الى والديك قبل موتهما لأنهما اكثرا الطلب والسؤال اليّ ! » فخرج يوحنا من قلّيته ومثل امام الرئيس وقال له : ارجوك يا أبت صلاتك عليّ وأمرك إيّاي اذا شئت لامضي الى والديّ لكسب بركتهما قبل موتهما ثم ارجع الى هنا . فان قصّتي هي : كذا وكذا وكذا ! ! !

فقال له الرئيس : اصبر يا ابني حتى يأتي اخوتك الرهبان فنصلي كالعادة ثم نجري ما ينبغي . وضُرب الناقوس فاجتمع الرهبان وتلوا الصلاة المعتادة في مثل هذا الموقف . وتاملوا يوحنا وسبحوا الله قائلين في نفوسهم : ! آه ! باي جمال وبهاء دخل الدير يوحنا ! وبأي ذبول وتغيير يخرج منه ! ثم وقعوا على عنقه وقبّلوه وودعوه قائلين : لا تنسانا من صلاتك يا اخانا ! وأودعوه قلوبهم وكلّ منهم يردد قول الشاعر :

لي في الحشاء بقيّة خلّفتها أودعتُها يومَ الفراق مودّعي
وأظنّها لا بل يقيناً انها قلبي فاني لا ارى قلبي معي

فغصّ يوحنا بالبكاء وقال لهم : وانتم يا اخوتي خدّمة المسيح اذكروني بصلواتكم . ثم تبارك بعضهم من بعض وبكوا حزناً وتفارقوا !

وترك يوحنا الدير باكياً . وبعد سلّ خطوة التفت الى الدير وبكى ورأى اخوته الرهبان واقفين ينظرون اليه يبتعد عنهم قليلاً قليلاً فيزداد بكاء ! وظلّ

على هذه الحال وظلوا هم ايضاً حتى كاد يغيب وراء الأفق فركع وركعوا ورفع يديه وصلّى وهو يقول : « ربي والهي وسيدي يسوع المسيح . لقد سمعت صوتك وجئت الى الدير فسهّل طريقي في ما انا ذاهب اليه . وسدّد خطواتي لارجع الى الدير بما امكن من السرعة ! »

ثم قام ملتفتاً الى اخوته ورفع يده علامة الوداع وغاب عن النواظر وهو يبكي واخوته على فراقه يبكون .

وسار في طريقه وهو لا يدري اين يذهب ولا يعرف اية طريق تؤدي به الى رومة مقام والديه . وفيما هو مفكّر بهذا اذا برجل رثّ الثياب مسكين وقف امامه وسلّم عليه . فسأله يوحنا « من انت ؟ ومن اين والى اين ؟ فاجابه المسكين انى مدينة رومة ! فسرّ يوحنا السرور العظيم وشكر الله الشكر الجسيم لانه حضّر له رفيقاً به رفيقاً.

ورقّ قلب يوحنا لرقّة حال رفيقه . فاقترح عليه ابدال ثيابه بثياب (لان ثياب يوحنا كانت أجد من ثيابه) فرضي الرفيق وقال : « ذلك افضل خير تصنعه اليّ . » فتبادلا الثياب وسارا اياماً الى ان قربا من المدينة واذا يوحنا بلا رفيقه ! فقال : ذلك ملاك طوبيا ارسله الله اليّ ليرشدني الى حيث أقصد ! فالشكر بل مليون شكر يا الله . ثم فكّر في نفسه : « كيف ادخل بيت أبي وهو لا يعرفني واخسر استحقاق جميع حياتي ؟ » فبدأ يصلّي الى الرب ليخفي امره على اهله . وما انتهى من صلاته حتى رأى ذاته على باب دار ابيه . وانجيله بيده يقرأه الليل والنهار.

واصبح الصباح ففتح البواب الباب فرأى يوحنا واقفاً امامه بتلك الثياب الخلقة والشكل الذري . فطرده قائلاً له : اذهب من هنا لئلا يخرج سيدي ويراك على ما انت عليه فيتقزّز من رائحتك !

فبكى يوحنا والتمس من البواب ان يدعه على جانب الباب راجياً اياه بقوله : التمس منك يا سيدي ان تدعني هنا وأجرك عند المسيح لا يضيع ! فشفق عليه وأبقاه . وكان والده يلقي نظرة حنان عليه كلما خرج من باب قصره دون ان يعرفه . ومكث يوحنا يرى اخويه واهله لابسي الثياب الفاخرة راكبي الخيول المطهّمة والخدم امامهم ووراءهم خارجين وداخلين وهو ملقىً على جانب الباب : يطرده الخدم ويقرّفونه ويدفعونه ذات اليمين وذات اليسار ويتهددونه بالقتل احياناً وهو صابر يصلّي واضعاً يسوع نصب عينيه على الصليب !

ورآه أبوه ذات يوم على هذه الحال فتعجب من صبره واحتماله الحرّ والبرد والجوع والعطش. فأمر عبيده ان يأتوه بفضلات الطعام يسدّ بها جوعه ذاكرًا ابنه في غربته قائلاً في نفسه: «ألا يكون ابني بحال شدة وضيق على مثال هذا المسكين؟» وكان هو وامرأته وولداه واقاربه يذكرون يوحنا ويحزنون ويبكون. ويراهم يوحنا على حالتهم هذه فيبكي ويصلّي لأجلهم ويقرأ انجيله سائلاً الله الصبر الجميل ثم وله!

فهل اغرب وادهش من مشهد هذا القديس العظيم محتملاً صابرًا يرى والديه واحويه وأقاربه بتلك الفخفخة والثياب المذهّبة فرحين مسرورين متنعّمين بألذ المآكل وافخر المشارب مغمورين بالنعم والخيور وهو على باسهم مطروح بداك الطل والشقاء والجوع والعطش والبكاء وانواع المصائب لا يرتخي عزمه ولا يهي صبره ولا يميل قلبه الى اشتهاء شيء مما هم عليه!؟ وما بدل محبة ربه بشيء من خيور العالم الزائل، بل واصل اختياره الشقاء والضيق حباً لربه وابتغاء لملكوته السماوي!

وبعد قيامه على باب والديه سنة كاملة خرجت أمه راكبة فرساً والخدم امامها ووراءها فرأته ولم تعرفه وهو متلفع بتلك الثياب البالية والرماد على جسده وهو في أسوأ الحالات. فاشمأزّت منه ونفرت وسدت أنفها حتى لا تشمّ رائحته. وأمرت عبيدها ان يطردوه فدفعوه وأبعدوه من هناك وقالوا له: لن ترجعنّ الى هنا والا قتلناك!

فابتعد يوحنا مسافة حتى رجعت الأم ودخلت القصر. ثم عاد الى محله قرب الباب وبدأ يتوسل الى البواب وهو يبكي قائلاً: «التمس منك يا سيدي ان تصنع معي هذا المعروف وأجرك لا يضيع عند الله: وهو ان تعمل لي مظلةً (كوخاً) انفرد فيها فلا يتكرّه مني ساداتك باثناء خروجهم من قصرهم او دخولهم اليه. ولي رجاء بالله ان يجازيك في ملكوته السماوي. فقد أحسنت اليّ عملاً من قبل. فكمّل معي هذا العمل الصالح وانا أؤكد لك ان ما تعمله معي فمع الله تعمله والله يكون اجرك العظيم!»

فسمع البواب هذا الكلام الرقيق فرقّ له قلبه وشفق عليه جداً وأمر العبيد ان يصنعوا له مظلة في قرب الدار لفرط ما رأى منه من عميق التواضع وغريب الاحتمال. فسكن تلك المظلة ثلاث سنين خفياً عن والديه خشية نظرهما اياه وتفورهما منه.

....

وبعد نهاية تلك السنين . وفيما كان يتسلّى يوحنا نصف الليل تراءى له يسوع نازلاً من السماء وقال له : « السلام عليك ايها الخادم الامين الطوبى لك لأنك اخترت ملكوت السماء ورذلت الملك الارضي . فالحق اقول لك : اني من الآن الى اربعة ايام انقل روحك الى ملكوت السماوات : وبدل الضيق هنا اريحك هناك في فردوس النعيم فتتنعّم بالحياة الدائمة والملك الابدي مع القديسين ظافرًا بالاكليل المحفوظ لك في سمائي لقاء جهادك بخدمتي ! »

فانكبّ يوحنا بوجهه الى الارض وقال : « احمدك يا الهي واشكر لك يا سيدي يسوع المسيح لانك نظرت الى تواضع عبدك المسكين ! » وتوارت الرؤيا .

وفي الحال استدعى يوحنا البواب وقال له : ارجوك يا سيدي ان تلتمس لي من مولاتك وتقول لها : « ان هذا المسكين الساكن المظلة يرغب في مقابلتك ويريد ان يكلمك كلمة واحدة ! »

فانطلق البواب ثم عاد يقول له : « انها لا تقوى على المجيء اليك . ولا ان تلقي نظرها عليك . ولا ان تشتمّ رائحتك الكريهة لأن نفسها تشمئز من هذا ! » ولم تكن عارفة انه ابنها يوحنا ثمرة احشائها وحبيب قلبها وقرّة عينها الذي كانت مستحضرةً إياه نصب عينيها الليل والنهار طالبةً من الله الا يغمض لها عينيها قبل ان تلقي عليه ولو نظرةً واحدة وتموت !

فسمع يوحنا جواب أمه بلسان البواب فقال له : « ارجوك ان تذهب اليها مرة ثانية وتقول لها : ان تحضر عندي ولا تشمئز مني والاّ آخذها الله بخطيئتي فانا رجل خاطئ اكثر من جميع الناس . فكلمّها وقل لها : اني الى اربعة أيام افارق هذا العالم الزائل الى العالم الآخر الباقي . فلي كلمة واحدة اقولها لها ووصية واحدة أوصيها اياها ! »

فلما سمعت بانه بعد اربعة ايام يموت اخذتها الشفقة عليه . وذكرت ابنها في غربته فبكت وتوجهت اليه في الحال . وعندما رأى يوحنا أمه قادمة اليه خرج من مظلته وتجد لها وسلم عليها وقال :

ارجوك يا مولاتي الاّ تأنفي مني والتمس منك ان تقسمي لي بالله ان تصنعي لي ما أوصيك به . ولم يقل لها شيئاً الا بعد ان اقسمت وقالت له : قل . فقال لها القديس : « اني رجل أخطأ من جميع الناس . فاستحلفك بالله ان تصنعي معي هذه الحسنة وهي ان تدفنوني بعد موتي بثيابي هذه البالية التي عليّ ولا تبدلوها . وتلحدوني تحت هذه المظلة الكائنة قرب باب داركم . فانها كانت

مسكني الى اليوم وساكون فيها الى اليوم الذي يقيمني فيه سيدي وافي من القبر !»

ولما سمعت هذا الكلام حزنت حزناً عميقاً وبكت بكاء مرّاً وحلفت له أنها تصنع جميع ما اوصاها به . وفيما هي تهم بالرجوع الى قصرها أخرج يوحنا الانجيل المذهّب الذي صنعه له والداه وشرع يقرأ فيه ويقبّله ويضعه على رأسه وعينه . فلفت نظرها الانجيل وحركات يوحنا به .

ثم قال لها : يا مولاتي خذي هذا الانجيل وهو لي . وكلّما طالعتم فيه ترحموا عليّ واذكروني بصلاتكم .

فلما نظرت والدته الانجيل المذهب عرفته . ومن شدة فرحها به لم تتأنه عن أمره شيئاً بل احدته واسرعت الى قصرها وأرته الى زوجها وقالت له : اتعرف يا مولاي انجيل ابنك يوحنا ؟ فعرفه لساعته واخذه منها وقبّله ووضعه على عينيه وكان يشمّ رائحة ابنه منه ويبكي وسألها : من اين لك هذا ؟ فقالت : من هذا المسكين المقيم في المظلة قرب الباب . فقد اعطانيه وقال لي : انه الى اربعة ايام يموت . وقد حلّفني بالله لندفنه بثيابه الرثّة ونلحده في نفس المظلة !

فقال لها : قومي نتزل اليه ومنه نعلم خبر ابننا يوحنا .

ولما رأى يوحنا أباه آتياً اليه اسرع الى ملاقاته مصلّباً يديه على صدره حانياً رأسه وتجد لوالديه . فقال له أبوه : من اين لك هذا الانجيل ايها المسكين ؟ اجاب يوحنا : «والدي صنعه لي !»

فقال له ابوه : «من اين وصل اليك »؟فان هذا الانجيل لنا ونحن صنعناه لابننا يوحنا ليقرأ فيه . فالآن استحلفك بالله اذا كنت تعرف اين هو ابننا يوحنا ؟ وكيف حاله ؟ أهو حيّ ام ميت؟ فبالله وبحقك أعلمنا قصّة ولدنا هذا لاننا بغاية الهمّ والغمّ بسببه !

وبعد ان استُحلف يوحنا بالله لقول الحقيقة لم يعد بامكانه انكارها لخوفه البليغ من القسم . فاخذ يبكي ويتنهّد ويتوح وفاضت الدموع من عينيه . ثم رفع ناظريه الى والديه وقال لهما: «انا هو يوحنا ولدكما الصغير» وتساقطت دموعه وكاد يسقط بالارض !

ولما تأكد والداه انه ابنهما فار دمهما وسقطا في الارض غاشيين وباكيين ! ثم استفاقا فتقدمت أمه منه وكشفت عن رجله اليمنى فرأت العلامة الفارقة فيه وهي — شامة معروفة — فتأكدت انه ابنها بدون ادنى ريب . فارتمت عليه هي وأبوه وعانقاه . وقبّلاه وشمّا رائحته وهما يبكيان من الصباح الى نصف النهار. وتعالت اصداء بكائهما ونواحهما فسمع اخواه واقاربه فالتمّوا حوله يبكون ايضاً

ويصرخون ويعجز الجميع عن مبادلتهم الكلام . وسمع اهل الحيّ ثم اهل المدينة فتسارعوا الى محل البكاء والصجيج وبدأوا جميعاً يبكون وينوحون .

وبينما هم لكذلك اذا بامه تصيح صيحة مفجوع وهي تقول فأصغى الجميع الى قولها : ويل لي يا ولدي ! ويل لركبتيّ اللتين حملتاك ! ولثديّ اللذين ارضعاك ! فؤد ! والف آه ! فلتعمَ عيناي ! ولتنهدم قواي ! كيف كنت أتأفف منك ! واشمئز هاربة من رائحتك ! أما كنت اتمنى ان انظرك ولو نظرة واموت ! آه ! لو كنت محظوظة لأتاني ملاك او انسان في بحر هذه السنين الاربع وقال لي : « هذا ابنك يوحنا ! » لكنت تحمّلت سعك يا ولدي ما قاسيت من حرّ وقرّ وجوع وعطش واهانة !

آه ! ياليتني عرفتك قبل اليوم لكنت نوعاً تعزّيت ! والآن انت على باب القبر وانا في الحياة حريصة شقية باكية حبيبي ومهجة قلبي وثمرة احشائي ونور عينيّ وتاج رأسي ! ولدي ! ولدي ! آه ولدي يوحنا !!! فويل لي يا ولدي من بعدك !

اذكر امك الحنون غافرًا لها ولكل من أساء اليك ! واذكر اخويك ووالديك غافرًا للجميع ! واذكرنا مرتمين على قدميك تقبّلهما مستميحين غفران ربك وسماحك باكين من حرقة قلبنا عليك يا يوحنا !

قالت هذا وهي باكية . فبكى لبكائها جميع الحاضرين ويوحنا كان اول الباكين ! لكنه وضع يسوع على الصليب نصب عينيه وبدأ يقول لوالديه واخويه ولجميع الحاضرين حوله على مثال يسوع يقول لأمه من على الصليب :

لا تحزنوا ولا تغتمّوا فان جميع ما فعلتم لم يكن عن قصد ولا عن معرفة . فلستم بذلك مسؤولين . وقد عاملتموني كفقير ومسكين فوصيتي الاخيرة لكم ان تغدقوا صدقاتكم على الفقراء والمساكين وتأووا الغرباء والمنقطعين وتعودوا المرضى والمتألمين وتزوروا المحبوسين وتجبروا منكسري القلوب وترأفوا بالأرامل والايتام . فبهذه الافعال وامثالها وصايا يسوع وعليها علّق تطويباته وقال : لمثل هؤلاء ملكوت السماء . وكل ما فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء فبي فعلتموه !

فسمع الحاضرون جميعاً كلام يوحنا هذا فأثّر بهم التأثير العظيم . وسمعه والداه فناحا بالبكاء وقالا : « ما رمته يا ولدنا ستفعله ما بقي لنا من الحياة . ونطلب منك ان تلتمس لنا من الله غفران جميع ما أسأنا به اليك » . فجثا يوحنا على ركبتيه وصلّى الى الله وقال لهما :

غفر الرب الاله لكما جميع خطاياكما ومحا ذنوبكما التي صنعتماها بمعرفة

وبغير معرفة جميع ايام حياتكما . ومكثا جاسه يبكيان وينتحبان طوال الاربعة الأيام وهو يصلّي امامهما ليل نهار.

....

ولما تمت الاربعة الأيام جثا القديس يوحنا على ركبتيه ورفع ناظريه ويديه الى السماء وصلّى : « يا امي وسيدي يسوع المسيح تسلّم روحي» وختم نفسه باشارة الصليب وأسلم روحه بيد الله !

فزاد ابواه حزناً على حزن وبكيا مرّ البكاء . وقامت أمه محروقة القلب وخلعت عنه ثيابه البالية ناسية اقسامها له وقالت : لا ادفننّ ابني بمثل هذه الثياب الخلقة بل باثواب الديباج والارجوان المحفوظة لعرسه ! وأمرت بحيء بها والبسته اياها !

فذكر والده الاقسام التي اقسماها لولدهما فقام وجلع عن جثته فاخر الألبسة واعاد عليه ثيابه الرثة وحفر له قبراً في المظلة (الكوخ) التي كان ساكناً فيها !

وعرف اهل المدينة بانتقاله فاجتمعوا حوله للصلاة . ومكثوا يصلون عليه سبعة ايام وسبع ليال . ثم دفنوه دفنة القديسين في قبره ضمن المظلة !

وبدأ والده بتوزيع الحسنات والصدقات وافرة على الفقراء والمحتاجين إنفاذاً وتلبيةً لرغبة ابنه القديس .

وبعد بضعة ايام من حفلة دفنه المكرّمة فرض الوالدان لولديهما ما يعتاشان به عيشة رضية رخية . ووزّعا باقي ما يملكان من فضة وذهب واثاث وما الى ذلك على المعوزين وعلى الكنائس والاديار وحبسا نفسيهما لابسين المسح الشعري ذارّين الرماد عليهما صارفين حياتهما الباقية بالبكاء والتوبة حتى منتهى حياتهما. وأخوا يوحنا وزّعا ما كان لهما وصارا راهبين صالحين اقتداء باخيهما يوحنا القديس . واشتهرا بعمل العجائب والآيات الباهرات .

وكانت وفاة القديس يوحنا الكوخي في الخامس عشر من شهر كانون الثاني سنة اربعماية وسبعين مسيحية . صلاته تحفظنا من الشرير آمين .